

الرواية الأوروبية

د. سهيل القمامة



(١)

لقد خاضت الرواية دون سائر الانواع الادبية معركة طويلة متعددة المراحل في سبيل أن تكون نوعاً ادبياً رفيعاً معترفاً به . عاشت طويلاً مرحلة شعبية بدائية - مرحلة الحدودنة - وتطورت أساساً وملاحم شعيرية في بعض الزمان والمكان ، ولكنها ظلت في طورها الاول تعيش بين أفواه العامة وأسماعهم دون أن ترقى منزلة الى ما هو أعلى من ذلك في سلم الادب الرفيع . ويوم بدأ المؤلفون يتجهون اليها في عصر التجارة الزاهر الذي زحرج نفوذ الاقطاعيين والنبلاء يحكم ما زخرت به أخيلة الناس من مناظر وأحداث وعجائب في الاسفار التجارية ظلت الرواية نوعاً منبوذاً من الفن الرفيع لا يتعاطاه المثقفون البرجوازيون وأوت أخبار الاسفار وعجائبها الفريدة الى كتب شبه علمية خاصة بها وإلى كتب شبه أدبية هي كتب الرحلات القديمة . وببزوغ فجر الصناعة أخذت جماهير التواء تتدفق الى دنيا الادب أو الفن عامة وساعدت المطبعة على نماء هذا الميل وتغذيته وإذا حال جمهور الصناعة أو مزاجه يطلب الرواية دون سائر الانواع الادبية لأسباب واضحة . وإذا الرواية في معركة طويلة تنفض عن نفسها اللعنة الى أن دخلت باب الفن الرفيع ، بل إنها أخذت تمتص من التاريخ الذي حكم عليها باللعنة والنبذ زماناً فإذا هي تكاد تقهر الانواع الادبية كلها في سوق القارئين .

كان هذا شأن الرواية من حيث دخولها حرم الفن ولكنها منذ دخلت من أضيق الابواب ظلت تبرر نفسها بقيم خلقية وعظمية حتى زمان قريب . وحياتها داخل نطاق الفن تمثل أطواراً طويلة متعددة تختلف من بلد الى بلد وتختلط بالرواية الشعبية عن قرب أو عن بعد ولكنها في جملتها تمثل المراحل الآتية . المرحلة المفرطة كحبات العقد كل منها حبة ثمينة في حد ذاتها وما على القاص الا أن يجمع حبات هذا

العقد فى خيط واحد واه هو ان هذه العجائب وتلك الغرائب كلها رآها انسان واحد أو حدثت لبطل واحد . ان كل حادثة وكل اعجوبة مشوقة فى حد ذاتها والقارى يريد المزيد منها كما يريد النهم المزيد من الطعام . ان لذة الرواية فى هذا الطور كانت فى تتبع هذه الرحلة المتنقلة بين حبات العقد . وتأتى الرحلات وعلوم الجغرافيا وكتب العجائب والفلك والانواء وما شابهها لتغذى هذا النوع من الروايات فلم يكن لمؤلفيها أمام العطش المتزايد من الجمهور قدرة على أن يشبعوا ذلك عن طريق الرحلات الفعلية أو المعلومات المحدودة التى تصل اليهم من الناس . ثم جاء طور رواية البطل المحبوب الذى تحدث له جملة احداث قد لا تكون طريفة وانما السر فى اننا نتابع الرواية هو حبنا للبطل ورغبتنا الشديدة فى أن نراه يصل الى النهاية السعيدة رغم المخاطر أو حتى رغم الظروف العادية السيئة . لقد صورت الرواية فى آخر هذا الطور رحلة الحياة قريبة من التاريخ مشرفة على الواقع . وقليلًا قليلًا كان من الطبيعي أن تنطور الى رواية « النجاح » لأن النجاح فى الحياة هو أهم جزء منها واذا الروائى يستبدل برحلة الحياة بتفاصيلها مجرد الجزء الخاص برحلة النجاح فى الحياة . وبدأ الصراع يدخل الرواية فالنجاح معناه تغلب على الصعاب وكلما ازدادت الصعاب خطراً كان النجاح أحلى وأوقع . ولكن رحلة النجاح تقرب من الواقع فى طورها الاخير فاذا الصعاب العادية تأخذ أبعاداً غير عادية واذا النصر نفسه يتضاءل أمام قرب هذه الصعاب من يوميات القارى وتجاربه . ولم يكن الامر بعد ذلك عسيراً . ان الانسان يصارع القدر ويصارع الناس ويصارع المجتمع ولكنه قبل هؤلاء جميعاً تكمن فيه هو كبرى الصعاب فى حياته . واذا روايات النجاح تتحول فى يسر الى روايات الصراع مع النفس . وبشرت الرواية بعلم النفس ثم نشأ علم النفس علاجياً فى كنف الطب وهرعت علوم وعلوم تغذى الرواية الحديثة علم الطب والنفس والفلسفة والمذاهب والعقائد والاقتصاد بعد أن عمق التأثير بالتاريخ والجغرافيا وغيرها . واخذ علم النفس الوليد بالذات يقذف بنتائجه الى عالم الرواية ليؤثر تأثيرات جبارة . وكثرت فى هذه المرحلة

روايات العقل الباطنى فى سبيل تحليل دوافع السلوك
الانسانى . وكانت رواية « المتولوج الداخلى » كما تسمى
سيدة النوع فى هذه الفترة المعاصرة وكثر القاء الاشعاع
الزمنى على الماضى وعلى المستقبل الغامض . وخفت الحدث
وبرزت الشخصية بروزا سرطانيا متورما .

ورقف الروائيون يسائلون أنفسهم فى العصر الحديث
كلما سثموا اتجاهها ما كل هذا ؟ هل هذا هو الفن . ان الفن
لا يبغي أكثر من اىصال تجربة جديدة الى المتلقى تجربة
لا يراد لها أن تضاف اضافة حسائية الى تجارب الناس
السابقة ، فكتب المعلومات عامة مملوءة بمثل هذه التجارب
ونائجها وهى حرية بأن تدفع بآلاف التجارب لمن يريد
أن يزيد حصيلته منها فى أخصر لفظ وواضحة ، ولكن الفن
يريد أن يضيف الى تجاربنا بهذه التجربة الجديدة اعماقا
جديدة لكل ما سبق لنا ان مارسنا من التجارب الفعلية او
المتصورة . ابعادا واعماقا جديدة تأتى بها التجربة الفنية
لم تخطر لنا على بال لان الفن يحرق العادى والمنظم ويخترقه
ليفتح لنا فيه كوه نطل منها على أعماق الحياة .

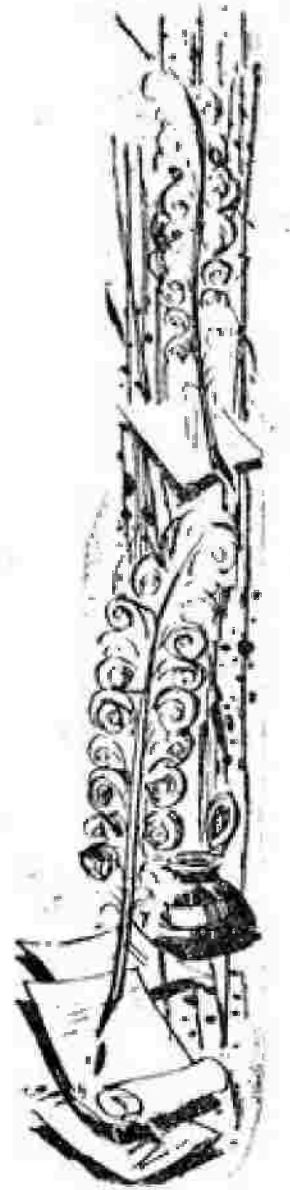
وبتقدم العلوم ازدادت الحاجة الى الفن وان ظن بعد
الجاهلين غير ذلك . بتقدم العلوم أخذ الانسان يسأل نفسه
« فيم كل ذلك ؟ » . ماذا يكمن وراء أسرار هذا العلم وماذا
وراء مكتشفاته من آفاق ؟ ماذا وراء رحلات الفضاء ولماذا
يريد الانسان أن يغزو عوالم أخرى ؟ نعم والى أى غاية ؟

وأمام هذه التساؤلات الضخمة انتشت الرواية بطاقة
ضخمة . انها وحدها أوضحت الانواع بل أوضحت الفنون فى
مخاطبة العقل . أوضحت من الرسم ومن الموسيقى . بل أوضحت
من الشعر . ولذلك كانت هى الاقدر على الرد الاوضح على
هذه الاسئلة . ان الفنون كلها تر ردودا قد تكون أعمق أو
أقوى أثرا ولكن الرواية تمتاز بأنها لا تستطيع الا أن تكون
أوضح مهما أعمقت فى الغموض . انها بذلك تصبح الفن
أو النوع الأدبى الاول الذى يحاول الرد على الاسئلة أو
يحاول درس المشكلة . ولذلك سميت « فن المشاكل » عند

بعض النقاد المحدثين • انها تستطيع وحدها أن تعالج الابعاد
المتعددة للمشكلة الواحدة •

وهي الفن الذي يستطيع أن يسبر غور مشاكل النفس
البشرية • مشاكل النفس مع الغير من أفراد الاسرة أو المجتمع
أو الحياة عامة ومشاكل النفس مع النفس ذاتها • وبدل أن
تصور الرواية الحديثة نمو الانسان من طفولة الى شباب الى
رجولة ثم كهولة ، لتصور انتصار الحياة واكتمالها وبعض
سرما الاكبر أو لتصور التغلب على الصعاب ما تكون في رحلة
النجاح ، أخذت الرواية تركز نفسها على المشاكل • مشاكل
الطفولة والمراهقة خاصة مشاكل الطفل الذي لا يفهم أبواه
مشاكل الصبي وعينه تفتتح على الموت وحقيقته مشاكل
المراهق وهو يحاول أن يكيف نفسه مع مجتمع زاهر بقيم
زائفة • وبدل أن تسعى الرواية في موضوع الحب لتوصلنا
الى بر الزواج السعيد أخذت الرواية تبدأ بمشاكل التأقلم
بين الزوجين المتحابين هذه الاقلمة التي تسعد النفس فتتكاثر
وتحيا رسالتها المقدسة أو التي تمزق النفس فتشقيها
وتبعثرها هباء منثورا • انها روايات البداية الصعبة لا النهاية
السعيدة هي التي تسود في عالم الرواية اليوم •

ولكن العلم يتدخل لحل هذه المشاكل بطريقته • ن
الطب النفساني يعالج العقد النفسية والمشاكل الاقتصادية
في المجتمع يعالجها علم الاقتصاد وسيدعو النظريات
السياسية ، والطب اليوم يكاد يقول الكلمة الفصل في
المشاكل الجنسية • وهكذا تعالج العلوم المختلفة تفصيلا
وتجريبا هذه المشاكل وتتصدى بوسائلها الاقدر والاقوى
لحلها • فماذا بقي للرواية • هل لها أن تنافس العلم وتتقدمه
لتخترع الحلول التي عجز عنها الى الآن ؟ من يدري ؟ ألم
تبشر الرواية بأثر العقل الباطني في سلوك الانسان دون أن
تعرف لفظ العقل الباطني وقبل أن يفكر الطب في محاولة
تفسير السلوك المرضي عن طريقه ؟ ولكن الذي لا شك فيه
أن الاسلوب التجريبي والمعمل العلمي يتحديان الرواية في
هذا الميدان • وليس من حق الرواية على نفسها أن تدخل هذا
الميدان على أنه ميدان نشاطها الاول • وأذن مرة أخرى ماذا



بقى للرواية • بقى لها أن تجدد فى أبعاد المشكلة وأن تتخطى العلم بخيالها الى حلول يملئها الحدس ويفجرها التعمق فى ملاحظة السلوك ملاحظة فنية لحاجة يعجز عنها العالم الذى يفتقر الى حس الفنان • سلوك الانسان صاحب المشكلة هام فى المعمل من نواح عدة ولكنه فى الرواية هام من نواح أخرى ، وابعاد صفات هذا السلوك عند الفنان غير ما عند العالم • ان العالم يرى كل حركة فى مستوى سائر الحركات ويرصدها رصدا لعل فيها هى السر المفسر • ولكن الفنان يلتقط مفردة من هذا السلوك ويعرف انها السر ويتعمق هذه المفردة ويضيف اليها أبعادها الفنية لا الواقعية • انه مجهر من نوع خاص •

وجهود الروائيين فى أنحاء العالم تتضافر كما تتضافر جهود العلماء فى سبيل حل مشاكل الانسان • والرواية الجديدة لا بد أن تختلف عن القديمة ولكنها لا بد أن تتأثر بغيرها مما تقدم من جهود فى الميدان الرواية الجديدة • تستلم الخيط من السابقين لتسير فى آفاق أوسع وأمام أرحب واغوار أعمق مما سار فيه السابقون • وهنا نجد ان تلاقي الروائيين ضرورى كتلاقي العلماء • ولما كانت الرواية أسهل فى الترجمة والى من سائر الانواع الادبية فان آثارها لا يمكن أن تحصر بين حدود جغرافية أو قيود اختلاف اللغة • الرواية فى كل بلد تتأثر بالرواية فى البلاد الأخرى • والقصة الشعبية كان التجار يحملونها مع بضائعهم ليجربوا بها آفاق الأرض فتتذوق فى كل مكان وتغذى القصة المحلية أيما غذاء • ولقد تشابكت رحلات التجار والمغامرين وتعددت بحيث أصبح أعسر العسير أن تعرف من أين جاءت هذه القصة الشعبية الى مكان بعينه واختلط الزمان والمكان فى تاريخ الرواية الشعبية بحكم طبيعة الرواية أو القصة • انها قابلة للسفر وعندها قابلية ضخمة لان تتأقلم • ولناخذ فرنسا مثلا انها تأثرت بالرواية الانجليزية والامريكية والالمانية والاسبانية والاطالية والروسية وغيرها وآثارا واضحة لامجال للشك فيها • وأثرت هى بدورها فى روايات تلك اللغات • فرواية المنولوج الداخلى مثلا التى بشر بها بروسنت الفرنسى كما بشر بها جيمس جويس الايرلندى تلين فى يد الروائيين الجدد فى فرنسا اليوم لتجارب جديدة • والغامض أو المخيف الذى نشره كافكا التشيكوسلوفاكى يخضع

لتجارب جديدة فى فرنسا وفى انجلترا وكلها تدين بشكل واضح لتجربة كافكا الفذة . والانتقال السريع ذهابا وايابا بين ماضى وحاضر ومستقبل والانتقال الخاطف بين وجهات النظر المختلفة فى موضوع أو حتى موضوعات شتى دون ترتيب منطقي أو تبويب جاف مثلما تنتقل عدسة السينما فى سرعة من جانب الى جانب أو جوانب الصورة أو غيرهما مما يوجد ولا يرى فى مكان بعينه كل هذا الذى برع فيه « كونراد » الايرلندى من المناظر غير المرتبطة نراه يلين فى أيدي الروائيين المحدثين ويسيرون فى خطه الى آماذ أبعد . والضغط على الحوار الثانوى أو الاعتراضى أو الهامشى الذى برع فى استعماله أول الامر بروسست وجويس اكتسب فى أيدي الروائيين الجدد حيوية جديدة وتدفقا تلقائيا جارفا . وسارتر أديب فرنسا الأكبر الذى برع فى اغراق القارئ فى حاضر يشرب الى مستقبل غامض غير واضح وغير معروف بينما هو مغمور غمرا فى « الآنية » العنيفة انما تعلم فنه هذا أول ما تعلم على همنجواى ودرس باسوس الأمريكيين ثم برع وبرع حتى ساراما أوفاق . وهذا الحوار الهامشى الذى تعج به الرواية صفحات وصفحات قد بلغ رشده عند فوكتر الأمريكى وأصبح اليوم هو بدعة العصر الحديث فى فن الرواية فى كل أوروبا .

وأصبح روائيو الخمسينات من هذا القرن يغرقون فى هذا النوع من الحوار المتدفق التلقائى الذى يضجى فى سبيله بيسر بالحدث ويسر نسبيا بالشخصية ذاتها . فالرواية لا حدث فيها ولا شخصية ، وانما هى حوار جوى متدفق بين مجموعة من الناس عادة لا يبرز فيها أحد على غيره . والحديث يجرى ويجرى ولا يعنى الروائى حتى بأن يحدد لنا هذا الذى يتحدث . انه حديث حى كالذى يجرى بين الناس فى أى زمان وأى مكان . انه هو وحده الذى يبقى ويستمر وقد يموت الناس وحديث الجماعة فى الحى هو هو .

ولئن بالغ الروائيون الجديدة أو « الواقعيون الجدد » كما يسمون فى استغلال هذا الحوار الهامشى المتدفق فان ذلك انما يكون فى سبيل تضوير بعد جديد من ابعاد الحياة الانسانية .

